جان جاك روسو

تحليل دقيق لمبادئه وآرائه الفلسفية

﴿ تمهيد عن روسو ﴾ يكاد يكون روسو الوحيد بين الفلاسفة الذي انشأ نفسه بنفسه لانه لم يدخل مدرسة ولم يتعلم ويتثقف الا بين احضان الطبيعة ، فشب حراً من كل قيد ، طليقاً من كل ما يرسف فيه غيره من اغلال العادات والتقاليد ، نفوراً من الناس لا يميل الى معاشرتهم ولا يأنس بصحبتهم ، لانهُ رافق البؤس منذ نعومة اظفاره وذاق من مرارة العيش وعلقم الحياة ما جعلهُ حقوداً على بني البشر ، نزوعاً الى لوم مساوئهم ، ميالاً الى عدم الثقة بعدالتهم وبصلاحهم. وقد كان في شبابه وسيم المحيا جذاب الملامح واكسبه تجواله في الجبال والاودية متانة العود ورشاقة القد فأصبح جميلاً فتاناً ولذلك صادف نجاحاً عند كل الذين تعرّف بهم ولاسيما لدى الجنس اللطيف ، وكان ذلك مدعاة لانضاج آرائه الفلسفية ومذاهبه الاجتماعية التي بثها في كتبه فعجلت في اشعال نيران الثورة الفرنسية وكان لها اكبر تأثير في مذهب الادب التجديدي المسمى رومانتيك

وقد خالف سائر الفلاسفة في آرائه وخطاهم بمراحل عديدة ، واهم فارق يبعده عنهم هو كونه حاسيٌ . اي انه لا يهيم في اودية الخيال ليعبر عما يتصوره بادراكه وعقله بل كان يرسم بقلمه ما يشعر به بحواسه . فبينما سائر الفلاسفة يقضون اوقاتهم في التفكير كان روسو يقضي وقته بالتمتع والتألم ؛ وبينما وصل غيره بالبحث والتحليل الى فكرة الرأي وتكوين العقيدة وصل هو بحسه وطبيعته الى حقيقة الادراك وصحة الاعتقاد ؛ فاولئك يبحثون ويحللون وهو يعيش ويشعر ؛ وكل ما خطته انامله مشتق من شعوره واحساسه ولذلك بدت آراؤه كأنها مستخلصة من مسبباتها ، شعرية ، حقيقية ، ثابتة ، مشيّدة لا مخرّبة هدّامة ، على نقيض آراء غيره من الفلاسفة التي تبدو في الخصوص تحليلية ؛ نقادة ؛ سلبية ، انكارية ، نافية ومحقّرة . فلدى هؤلاء الفلاسفة حقد أثم ، وتهكم أثم ، واستهتار وازدراء عظيمان ، حيث لا يوجد لدى جان جاك روسو سوى حماسة وحبور وافتتان وسرور

﴿ حياة روسو ﴾ ولد جان جاك روسو في مدينة جنيف بسويسرا في اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو سنة ١٧١٢ من اب فقير يشتغل باصلاح الساعات ؛ وماتت امه وهو طفل فكفلته عمتاه ولكن لم يلق منهما اعتناء كبير بينما ابوه الارعن الاخرق كان يحشو عقله وتصوراته بالروايات العشقية ؛ فكان يقضي واياه الليالي ساهرين يقرآنها بشغف وهيام حتى مطلع الفجر ،

ثم نبذ روسو الروايات والقصص وعكف على قراءة فلوطرخس المؤرخ اليوناني والاخلاقي الكبير الذي وضع كتابه الشهير المسمى «تاريخ الرجال العظام عند اليونان والرومان» فملأ الفتى رأسه باخبار الاقدام والشجاعة . وفي سنة ١٧٢٢ غادر والده مدينة جنيف لسبب غير معروف وعهد بابنه الى خاله برنار والى زوجته فادخلت هذه الاخيرة روسو في معهد عند احد الرعاة الانجليكانيين الكائن في بوسي بالقرب من جنيف ، فتفتحت ميول الفتى للطبيعة لكنه عاد الى جنيف ووُظف عند احد النساخ لكنه لم يحسن القيام بما طلب منه فادخل عند حفار غليظ الكبد صخري القلب كان يشبعه ضرباً فيسرق له روسو فواكه حديقته وكل ما تصل اليه يده

وكان قرب حانوت الحفار مكتبة فشرع الفتى يقرأ كل كتاب يجده على متناول يده لكن الحفار كان يحرق له الكتب ويضربه ضرباً موجعاً اليماً . فعوّل روسو على ان يجد له مخرجاً مما هو فيه ، وبينما هو ذات يوم يهيم في ضواحي جنيف متمتعاً بما يتجلى امامه من مناظر الطبيعة الخلابة اقبل الليل من دون ان يدري، ولما قفل راجعاً وجد ابواب المدينة مغلقة فحمد الله على هذه الفرصة وعزم على هجر جنيف والضرب في هضاب الارض وشعابها وكان عمره وقتئذ ست عشرة سنة ، فسار في مقاطعة السافوى فالتقى به قسيس كاثوليكي فأرسله الى قصر سيدة تسمى مدام دي وارانس اخذت على نفسها رد البروتستانت الى الكثلكة، فراقها حسن منظره فبعثت به الى دير في مدينة تورين حيث اعتنق المذهب الكاثوليكي بسهولة، وبعد ذلك غادر الدير وفي جيبه عشرات الفرنكات ولما نفدت التحق بخدمة المنازل ليعيش

وبعد ما تنقل في مدن عديدة وبلدان شتى عاد الى قصر مدام دي وارانس فادخلته في دير قريب ليصبح قسيساً لكن نزعته الآ ذاتية ما لبثت ان عاودته فشرد في البلاد وزار لوزان ونيوشاتيل وليون وباريس وحط رحاله في مقاطعة الشارميت الجميلة حيث مكث ثلاث سنوات من سنة ١٧٣٨ الى سنة ١٧٤٠ ، فعكف على الدرس والمطالعة واتمام ثقافته فدرس الكتب الفلسفية والتاريخية واللاهوتية والشعرية وغيرها

وبعد ما طوّحت به الاقدار في بلدان اخرى عاد الى باريس وتعرّف بالعلماء والفلاسفة، فكلفه الفيلسوف ديدرو ان يدبج المقالات الموسيقية اللازمة لدائرة المعارف ، وفي سنة ١٧٤٩ وضعت ندوة العلوم في مدينة ديجون جائزة مالية لمن يحسن الاجابة عن هذا السؤال «هل تقدم العلوم والفنون ساعد على افساد الاخلاق او على تطهيرها ؟ »

ففاز روسو بالجائزة لان جوابه كان مضاداً للرأي العام القائل بان العلوم والفنون هذّبت من طباع البشر ورفعت من اخلاقهم . فظهر دفعة واحدة وذاع صيته وانتشر اسمه ولما اظهر كتابه المسمى « رسائل في عدم المساواة» احدث الكتاب ضجة عظيمة ودوياً كبيراً في اندية الادب وفتحت الصالونات والقصور في وجه المؤلف الشاب لكنه كان جافاً في طباعه نفوراً

من الناس لا يحسن المعاشرة ولا يميل اليها ، فنبذ كل هذا وهجر المال الوفير الذي كان يتدفق عليه وعاد الى تجواله رغم تمسك رجال الادب والفلسفة به

وفي سنة ١٧٥٤ رجع الى احضان البروتستانتية ، وبعد ما جاس الديار في فرنسا وسويسرا وانجلترا وعشق كثيراً وتبدّل اكثر عاد الى باريس وسكن في منزل حقير وشرع ينسخ القطع الموسيقية ليجد ما يقتات به بعد ما صودرت كتبه في كل البلدان تقريباً

وعندئذ تولاه شبه جنون كان يصور له الناس كلهم اعداء له يعملون على النكاية به فأغلق بابه دون قصاده وزواره الذين كان معظمهم من علية القوم وذوي المكانة الادبية والعلمية وكان يطردهم بغلظة وفظاظة ؛ ومات في سنة ١٧٧٨ فقيراً معدماً ويقول التاريخ من المحتمل ان يكون قد انتحر مدفوعاً الى ذلك بالخلل الذي طرأ على عقله

﴿ مؤلفات روسو ﴾ لبث هذا الفيلسوف الكبير والكاتب العبقري حتى السابعة والثلاثين من دون ان يخط شيئاً او يبرز رأياً الى ان جرت مباراة اكادمية العلوم في ديجون في هل ساعد تقدم العلوم والفنون على رقي الاخلاق او عمل على افسادها، فكتب رسالته الشهيرة وفاز بها على سائر المتسابقين وكان ذلك في سنة ١٧٤٩ ، ومنذ ذلك الزمن حتى سنة ١٧٦٢ اي في اثنتي عشرة سنة وضع كل مؤلفاته التي رفعته الى اعلى طبقة بين رجال الفلسفة والادب وهي «نارسيس» و «هيلويز الجديدة» و «رسالة في المناظر» و «العقد الاجتماعي» و «اميل» و «رسائل في عدم المساواة»

واما «اعترافاته» ومشاهداته «التأملات» فقد الفها في الست عشرة سنة الاخيرة؛ وهي ليست بذات قيمة من الوجهتين الفلسفية والادبية، لانها ليست سوى تخيلات شيخ طاعن في السن يحيا بتذكاراته الماضية معيداً في مخيلته باشتياق عظيم ولذة كبيرة حياته السالفة المشوشة غير المنتظمة

﴿ آراء روسو الفلسفية الاجمالية ﴾ الانسان صالح في حالته الطبيعية ، وكيف يمكنه ان يكون غير ذلك والشرائع غير موجودة وعلم الاخلاق الاصلاحي لا اثر له ؟ فهو لا يخطىء ضد القواعد اذ ليس ثمت قواعد ، وهو اناني لكنه لا يتبع في ذلك غير الغريزة التي تملي عليه المحافظة على بقائه ؛ فهو اذن بريء كالحيوان ، لا يسعى الا لاشباع حاجته فلا يمد يده بأذى الى احد ، ولا يتطلب شيئاً غير ذلك اذا ما نال تلك الحاجة . وهو ذو احساسات لطيفة او متعبة توقظ نشاطه وتنبّه غريزته ، ولا يتطرق اليه الفساد الا في اليوم الذي يعلو فيه تفكيره على احساسه ويسمو فيه عقله على غريزته ، فعندئذ تخلي انانيته الشرعية الجميلة المكان للمنفعة الذاتية الكريهة، فالتنازع والتفاوت لذلك الزمن تعدد الاحتياجات ومن الابتكارات المصطنعة لللذّات الآراء ، ومن الاحتياطات للمنافع المقلدة المخالفة للطبيعة، فالاجتماع قد افسد بايجاده فيه التفكير والعقل والمنفعة، وبإماتته في عاطفته حاسة الشفقة ؛ وبتنبيهه فيه شهوات النفس الى ما وراء حاجته ، وبتخطيه في ذلك حدود الحاضر وتطلعه بلهف الى المستقبل القريب والبعيد

﴿رأيه في «رسالته في عدم المساواة»﴾ يظهر لمن يدرس مؤلفات هذا الفيلسوف ان آراءه متضاربة متناقضة ومبادءه لا تسير على وتيرة واحدة بل هي متعارضة متباينة قد ينقض بعضها بعضاً . وهذا ما عابه عليه كثير من النقاد ، ولكن من يتعمق في درس كتب روسو ويستوعبها تكشف دقائقها يجد ان آراءه وان بدت في الظاهر غير ذات صلة فهي في الباطن متضامنة متناسقة متسلسلة ترمي الى غرض واحد وهو ان الانسان خلق حراً فاستعبد وولد سعيداً فأرهق بالمظالم والمغارم ، وان الانسان الطبيعي اشرف نفساً وارفع مبدأً من الانسان الاجتماعي فيجب اذن الرجوع الى الطبيعة ولكن في عدم تقهقر الانسان عما وصل اليه في الاجتماع ، لان الطبيعة لا تتقهقر — وهنا سر المآخذ التي يأخذها النقاد على روسو — فهو يعترف في بعض كتبه مُجلياً هذه النقطة من ان الانسان الاجتماعي افضل من الانسان الاصلي أي من الانسان القديم الذي كان يعيش في احضان الطبيعة كالحيوان الاعجم ، ولكن يجب ان ينقّى الاجتماع من الشوائب التي تسلقت اليه لكي يتسنى للانسان الاجتماعي ان يعيش في بيئته الجديدة حراً طليقاً من كل قيد ، سعيداً لا يرهقه عسف ولا ينزل به ظلم او جور ، بعيداً عن المؤثرات الاجتماعية التي تفسد ميوله الفطرية السامية وتدهور اخلاقه وتنزل من علو نزعاته ومراميه . واما رأيه الذي أبداه في عدم المساواة فينحصر بقوله : ان رذيلة الاجتماع الاساسية هي عدم المساواة بين افراد البشر ، وتوجد في الطبيعة ايضاً نقيصة مثل هذه لكنها لا تمنع احداً من ارضاء شهوة نفسه ، ولا تعوق احداً من العمل على ارضائها ، فهي تترك كل واحد حراً وتوجده صالحاً وسعيداً ، واما عدم المساواة الاجتماعية فهي تخلق امتيازات بين افراد بني الانسان فتقول لبعضهم خذوا كل شيء ولا تعملوا شيئاً بينما تقول لسواد الناس : كدّوا واتعبوا ولكن ليس لانفسكم بل لغيركم . فتوجد بذلك ظلاماً وعبيداً واشراراً واشقياء

واصل الداء الاجتماعي الملك ، فهو ركن الهيئة الاجتماعية ودعامتها المتينة ، فالقوة والجاه والعظمة والشرف كل هذه الصفات المجحفة تعود الى عدم المساواة في توزيع الاموال أي تعود الى الملك ، وبمراعاة هذه الحالة يمكننا ان نعبر عن الشر الاجتماعي بانه تعارض بين الغنى والفقر

﴿جوابه عن سؤال اكاديمية العلوم في ديجون﴾ لما كان الاجتماع شريراً في جوهره ، ولما كان كل تقدمه ينحصر في كونه يسير من سيء الى أسوأ ، فسنة الحالة الاجتماعية البارزة هي دليل على فساد اشد واقوى ، أي كلما امعن الاجتماع في رقيه كان شره أعم وضره أتم ، لان تقدم الهيئة الاجتماعية يقاس بدرجة إيناع الآداب والفنون التي هي ابتكارات الانسانية الذكية ، غير انها تدل دلالة واضحة على عسف هذه الانسانية وظلمها ، لان هذه الابتكارات متولدة من الشر ، وهي في الوقت نفسه تذكي هذا الشر وتزيد في ضرامه ، لاننا نرى في كل مكان الآداب والفنون على صلة وثيقة بالترف ، وما الترف الا غنى البعض بشقاء الكل

﴿ مذهب روسو في العقد الاجتماعي ﴾ الرجوع الى الطبيعة . . ولكن لما كانت الشقة قد بعدت بين الحالة الفطرية والحالة الاجتماعية لا يتسنى للانسان ان يتخلص من هذه ليعود الى تلك . واذا أمكنه ذلك أصبح أشقى مما كان ، لان الانسان المتوحش والانسان المتمدن يختلفان اختلافاً عظيماً بنزعاتهما وعواطفهما واميالهما وخوالج فؤاديهما حتى ان ما يسبب سعادة الواحد يعود بالتعس على الآخر ؛ لان الانسان المدني افضل من الانسان الفطري من عدة وجوه ؛ ولو انهُ في حالته الجديدة يتجرد من مزايا عديدة كانت تمنحها له الطبيعة، ولكنه يربح في مقابل ذلك مزايا اخرى عظيمة ، فخواصه تتمرن وتتبسط ؛ وقواه العقلية تتمرّس بشؤون الحياة ، وافكاره تتسع ؛ وعواطفه تسمو وتشرف ، ونفسه كلها ترتفع وتعلو حتى انه لولا التطرف في تفسخه الحديث الذي ينزل به في اكثر الاحيان الى دركة احط من التي ارتفع منها لوجب عليه ان يبارك الزمن السعيد الذي انتشله الى الابد من تلك الهوة العميقة ، والذي جعل منه مخلوقاً ذكيًا بل صيره انساناً بكل معنى الكلمة

ان روسو لا يود ان يعود الانسان القهقرى الوف السنين ليفوز بالمزايا الفطرية التي كان يتحلى بها بل يريد ان يحتفظ هذا الانسان بما وصل اليه من رقي عقلي وتثقيف ذهني وتقدم علمي دون ان تسفّ الاخلاق الاجتماعية بهذه الصفات السامية الى الدرك الاسفل

ويتطلب هذا الفيلسوف من الهيئة الاجتماعية ان تمنح هذا الكائن النازع الى الكمال الحرية والسعادة والطيبة والصلاح وهي المزايا الطبيعية التي كان الانسان الاول يتحلى بها قبل ان يجرده منها الاجتماع ومساوئه ، ويعقب على ذلك بقوله ان الطبيعة اوجدت الانسان صالحاً لكن الاجتماع أفسده ، ولا يمكن للانسان ان يعود الى صلاحه الفطري الاّ بالله الذي خلقه صالحاً لكنه زاغ وحاد عن الطريق السّويّ ، فالله القائم في نفسه يعيده الى ما كان عليه : لانه ينبوع النزعة الاخلاقية وسند الارادة وخير كفيل للتعهدات النفسية واعظم شهيد على خوالج القلب ونزعات الفؤاد، وبدون الله ينهار كل شيء ويضمحل بل يزول ويعفو أثره

ورأي روسو في العقد الاجتماعي ان لا يقتصر الاصلاح على الفرد بل يتناول المجموع ، فكما ان الفرد في حاجة الى تقويم مبادئه برجوعه الى فطرته الاولى كذلك الاجتماع محتاج الى الاصلاح في أسسه وتشريعه ، ويتسنى للهيئة الاجتماعية تنقية شوائبها برجوعها الى مبدئها أي الى السبب الذي كُوّنت من أجله

﴿ فلسفة روسو في كتابه « إميل او التربية » ﴾ التجديد المطلوب للفرد يبدأ بالتربية ، فالطبيعة صالحة والهيئة الاجتماعية شريرة ، فيجب اذن ترك الحرية للطبيعة لتعمل عملها الصالح وابعاد الاجتماع عن التعرّض لامر الطفل الذي يجب ان يكون بمعتزل عن كل تأثير اجتماعي . فالطبيعة اوجدت الانسان المتوحش ، فلنجعل طفلنا متوحشاً ، ولنقوّ جسمهُ ولننمّ

حواسه وتنبّه غريزته وتساعد فكره على التخلص من احساساته ولتصير حتى يبدو عقله بدون ان تستعجل تضوجه بالوسائل ، فالانسانية تعلمت بالاحتياج والاختبار ، فلهي للتلميذ الاحتياج ولجهز له التجارب والاختبارات ، فالشكل البارز للفساد الاجتماعي هو في وقتنا هذا « علم الادب » فيجب اقصاء الكتب عن التلميذ الذي لا يجب ان يبدأ بالقراءة الأ في السن التي يتسنى لعقله فيها نبذ الرذيلة وتفهم الجمال ، فالطبيعة لا تعرف غير الله ، واما القواعد الدينية فن مبتكرات الهيئة الاجتماعية

فعلينا اذن ان لا نظهر للتلميذ غير الله ، وان لا نظهره لهُ الاّ عند ما يتمكن هو من رؤيته في الطهارة وفي لا نهاية جوهره ، فاذا نهجنا هذا المنهج شبّ طفلنا قويًّا نبيهاً صالحاً ذكيًّا عاقلاً تقيًّا سعيداً لأن الانسان الفطري الذي أُبقي في الطفل دون ان يفسده مبدأ اجتماعي قد مكّنهُ من الفوز بكل مزايا الطبيعة دون ان يتسفل الى هذه المزايا تقابلها نقائص الانسان المدني ورذائله

﴿ من اين استوحى روسو آراءه وافكاره ﴾ تدور كل مؤلفات روسو على محور الفردية ، فعقيدته باجمعها مستقاة مما أَلمَّ بشخصه ، لانهُ عبَّر في كتبه عن ذاته وعن صلتها بالهيئة الاجتماعية . ولكن لا يجب ان يتبادر الى الذهن ان روسو انما أتى بآراء وافكار لم يسبقهُ اليها احد قبله ، فقد كان شأنهُ في ذلك شأن غيره من الفلاسفة والكتّاب ، فالمتأخر يأخذ عن المتقدم نظريات يعود الفضل فيها اليه لتوسعه في شرحها وتبيانها والباسها ثوباً قشيباً لم يكن لها من قبل حتى تبدو كأنها جديدة لرواتها وبهائها

فقد اخذ روسو عن الفيلسوف ديدرو رأيه في مناصبة الاجتماع العداء وفي العودة الى الطبيعة ، وتناول من كونديّاك مذهبه الخاص في الاخذ بالامور الحسية والانتقال من المشخّص الى المجرَّد ومساعدة الطفل على ان يكتشف بنفسه كل الافكار والآراء عوضاً عن ان تلقنهُ اياها (وهذا ما بنى روسو عليه كتابه المسمى اميل او التربية)

واخذ عن بوفون الآراء المدعمة والمقوّمة لحدسه عن الانسان الفطري وعن مذهب التحوّل القاضي بتطور العالم وما فيهِ من الكائنات ، وتناول من مونتسكيه فكرة الشخص المتوحش الخجول البريء وفكرة عدم المساواة ونظم الجماعات للفرد ، واخذ ايضاً عن هذا الكاتب الاقتصادي والاجتماعي وعن برسييه وعن هيز المذهب القائل ان كل الحقوق تتخذ اصولها ودعائمها من الهيئة الاجتماعية وان الانسان يستمدّ هذه الحقوق كلها من الاجتماع نفسه ، وتناول عن بسكال فكرة الحكم على الملك الذي كان ذلك الفيلسوف يعده اغتصاباً بيّناً

وصفوة القول ان كل هذه الآراء كانت شائعة في زمن روسو فجمعها هذا وصاغها في قالب يستهوي القلوب ووسمها بميسم الفصيح الشائق مستمداً من حالته النفسية ومعيشته ونشأته ما جعلها فتّانة خلاّبة

﴿ مقابلة في المُعتَقَد بين روسو وفولتير ﴾ يعجب البعض كيف ان جان جاك روسو ظلَّ مؤمناً وهو الذي شنَّ الغارة على كل سلطة مع ان فولتير لم يتطرَّف تطرُّفه لكنهُ كان ملحداً كافراً لا يؤمن بالله بل لا يعتقد بوجوده . فروسو كان بروتستانتياً والتابع لهذا المذهب المسيحي لا يسعهُ مهما شطت به الآراء ان ينقلب على دينه ويناصبهُ العداء لان المذهب نفسه يبيح لهُ حرية الرأي والتفكير والاخذ بما يرتئيه وان كان رأيه هذا مخالفاً لآراء اخوانه في المذهب والمعتقد ، بينما الدين الكاثوليكي لا يسمح بأقل شذوذ او خروج عن المعتقد المحدود وسلطته العليا التي يجب الرضوخ لها تحتم على كل من لا يعتقد بجزئياته وكلياته ان يخرج من احضانه

ولما كان فولتير كاثوليكياً شاذاً في الاعتقاد متطرفاً في الرأي يأبى ان يخضع لسلطة مذهبه فقد أُبعد من الكنيسة الكاثوليكية ولذلك ناصب الدين العداء طيلة حياته حتى ان الشطط بلغ به الى ان يتصور الله سبحانهُ وتعالى فكراً — ليس الاَّ — انتجتهُ الاقيسة الفلسفية ووسوسة اظهرتها المنافع العمومية . فالفرق اذن بعيد بين فلسفة روسو القائمة على نبذ كل شيء في الدين ما عدا الله الذي كان جان جاك يعتقد به اعتقاداً راسخاً وبين فلسفة فولتير المشيَّدة على الكفر والالحاد وعلى نبذ كل شيء حتى الله جلَّ جلاله

ولكن لا يسع كل انسان مهما تحجر قلبهُ وصلدت عواطفهُ ومهما إدَّعى الكفر والالحاد وملأ المسامع شقشقة لسان وحشا الكتب بالمروق والزندقة الاَّ ان يعترف في قرارة نفسه بأنهُ يوجد إله قوي يسيطر على العالم ويهيمن على العباد ، ولذلك لما رأى فولتير الذي ملأ الدنيا بكفره والحاده نفسه على فراش الموت وتطلع فيما حوله فلم يجد صديقاً ولا محباً حقيقيين ورفع رأسهُ الى علٍ فازورَّت عنهُ رحمة الله لانهُ لم يتطلبها . . لما رأى نفسه في هذه التعسة اقرَّ رغم انفه بوجود الله الذي انكره وصاح من فؤاد مكلوم : اني اموت منبوذاً من الله والناس

﴿ مذهب روسو في بوتقة النقد ﴾ ان مذهب روسو وان كان خلاباً في مظهره الخارجي لكن باطنهُ يرتكز على دعائم تكاد تكون سفسطية اي قياسية ليس الاَّ ولاسيما فيما يتعلق بسلسلة وبنتائجه السلبية ، اذ لا يمكننا ان نوافق هذا الفيلسوف على زعمه من ان الانسان الفطري كان صالحاً للدرجة التي صوَّرها بها الاَّ اذا كان صلاحهُ مماثلاً كما يقول روسو لصلاح القرد المسمى « الاوران اوتان » الذي لا يفكر بامر غده ولا يجمع المال ولا يدَّخره ولا يستخر غيره من القردة ولا يستعبدها ولا يجيعها ولا يسجنها ولا يمعن فيها فتكاً وقتلاً

ثم الشر الموجود في الدنيا الذي ينسبهُ جان جاك الى الهيئة الاجتماعية ، فهذا في حد ذاته قابل للنقد والتفنيد لان الاجتماع عمل طبيعي فيكون اذن صالحاً اذا كانت الطبيعة صالحة وشريراً اذا كانت شريرة ؛ ولا يمكن والحالة هذه نسبة الشر اليه ونفيه عن الطبيعة طالما ان الاثنين مرتبطان وان الواحد منهما مشتق من الآخر ، هذا فضلاً عن ان الاجتماع انما وُجد ليعالج

الشر ويداويه ويستأصله اذا تسنى له ذلك. يقول روسو في كتابه «العقد الاجتماعي» ان الفرد قد باع نفسه بكليتها الى الهيئة الاجتماعية ، وهو قول مردود بطبيعته لان الانسان لا يمنح الاجتماع من حريته الا النزر اليسير الذي يكفي هذا الاجتماع ليقوم بالمهمة المطلوبة منهُ

واما مبدأ جان جاك فيما يختص بالمدنية الذي ينعتهُ بحجر الزاوية القائم عليه الاجتماع ويعده اصل شرور العالم ومنبع جرثومتها فلا يقوم على قاعدة ثابتة لا يأتيها الباطل لان هذا المبدأ مشكوك في صحته مثل حقائق الاشتراكية والشيوعية النظرية وتأثيراتهما العملية

وكتاب روسو المسمى « اميل او التربية » يكاد يكون عقيماً لانهُ لما كانت الطهارة الفطرية التي ينشدها ليست حقيقة واهنة فالتربية السلبية تصبح اذن جنوناً مطبقاً ، لان نبذ السلطة الابوية وابعاد الكتب عن التلميذ وتركه يتخبط في دياجير الجهل حتى الثانية عشرة من عمره من أضرّ الامور به لان الذكاء لا يتقوَّى ويظهر الا بالتمرن والممارسة ، واذا لم يعتلِ العقل بالحقائق امتلأ بالاكاذيب والترهات ، فكأن روسو اراد ان يمنع عن الطفل شراً فجلب عليهِ شروراً عديدة . فطريقته اذن في التربية منقوضة لانها لا تعدُّ التلميذ للحياة التي تتلخص في كلمتين اثنتين لا ثالثة لهما وهما « سعي وملل » فالانسان خلق ليكد لا ليتمتع ، وليكد ويتعب ليس في الوقت الذي يطيب له الكد والتعب فيه بل في الوقت الذي يحلو لغيره او للحظ ان يطلب منهُ الكد فيه والتعب ، فالتربية يجب ان تعلمنا اذن ان نعمل ما نسأم منهُ في الوقت الذي نسأم من العمل فيه اكثر من غيره . هذا هو مجمل مذهب جان جاك روسو ، وهو لعمري نظريٌّ اكثر منهُ عملي ، ولا نغالي اذا قلنا ان تطبيقهُ يكاد يكون مستحيلاً لانهُ لم يعمل به قط واكبر ظننا انهُ لن يعمل به في السنين المقبلة بل في العصور الآتية مهما دار الزمن وتطورت طبائع البشر

﴿ الفضائل في مذهب روسو ﴾ ليس نقدنا لآراء هذا الكاتب الاجتماعي والفيلسوف الكبير دليلاً على ان مذهبهُ الفلسفي لا قيمة لهُ فقد ابدينا ما يؤاخذ عليه ليتسنى لنا اظهار حسناته الجمة بل فضائله التي وان كانت البشرية لا تقدر على العمل بموجبها للانانية المتسلطة على عقول بنيها ولما اختطته لنفسها من طريق لا يمكنها الحيدة عنها ولا النكوص ولكن هذا لا يمنع هذه الفضائل من ان تكون مثلاً اعلى للاجتماع لا يتسنى لهذا ادراكه لاسباب جمة لا يسعنا حصرها هنا

لقد بزَّ روسو فولتير بآرائه الفلسفية التي تأثر بها عصره تأثراً عظيماً حتى كانت السبب المباشر لنشوب الثورة الفرنسوية . فقد اوضح في كتاب « العقد الاجتماعي » ان الهيئة الاجتماعية شركة غايتها المحافظة على كيان الاعضاء المؤلفة منهم والدفاع عنهم ، وان الحكومة لا تكون شرعية الا اذا جعلت غايتها التوحيد والمصلحة العامة ، فاذا راعت ذلك انتفت المظالم وزالت المغارم

ويغلب على الظن — خلافاً لما توهمه البعض — ان روسو لم يسع لاسقاط شكل من اشكال الحكومة بل عمل ما في وسعه للاشادة بمبادىء الحكومات ونظامها التي عدَّها مجحفة بحقوق الافراد ، فاذا راعينا ذلك تبدَّى لنا ان مذهب سيادة الامة هي الحقيقة الراهنة التي لا نزاع

فيها لأنها تنفي استغلال الشعب بواسطة الجماعات او بواسطة فرد واحد

ويمتاز روسو بكونه اول من حمل على المشكلة الاجتماعية الخطيرة التي تنحصر في الترف من جهة والحرمان من جهة اخرى وفي الغنى والفقر والانانية والكد لغير، فكل هذه المظالم التي تحيق بالافراد اساسها الامتلاك فاذا زال هذا السبب زالت نتائجه واضمحلت مسبباته الوخيمة

وقد اصاب بقوله في «عدم المساواة» ان عدم المساواة السياسية والاجتماعية تكاد لا تظهر ولا يبدو لها أثر اذ كان هناك تساوٍ في الاخلاق والعقول والمدارك، لحيث يعيش الاشراف والنبلاء والمسيطرون نفس المعيشة التي يعيشها عامة الشعب ويكون لاولئك نفس الافكار والآراء التي لهؤلاء تنتفي عدم المساواة فلا يعود ثمت غُرم ولا ظلم. ورأي روسو الذي ابداه في رواية «هيلوز الجديدة» من الآراء الاجتماعية السديدة، فقد اظهر فيه تجدد الانسان الخلقي الكامل وكيف يحصل ويتم، وشنَّ على الكذب الاجتماعي والنفاق الانساني غارة شعواء، لان هيئتنا الاجتماعية العتيقة قد شاخت ونال منها الكبير وهي تعيش معيشة صناعية لا طبيعية، فدأبها في حياتها الرضوخ للعواطف والملاذ وجنوحها للسلوك والآداب الخلقية الخارجة عن دائرة الحقيقة، فالاعتبارات عندها تسمح بازدراء الفضائل عوضاً عن ازدراء التقاليد المرعية واللياقات الوضعية، ومما يؤسف له انها بعد ما تطلب من الانسان التضحية بضميره وبعفته ونزاهته واستقامته في سبيل انانيته الخادعة التي يصبو اليها لا تنجز الوعد بل تنقض عهدها معهُ دون مبالاة كأنها لا تأتي امراً إدّا

ومن اجمل ما في كتاب «اميل او التربية» الفكرة الاساسية القائلة: اذا كان نشوء الفرد يردّد على وجه الاختصار تطور النوع وارتقاءهُ فتعليم الطفل يجب ان يظهر بشكل صاغر حركة الانسانية العامة، لان سن الاحساس يسبق سن التفكير، والتربية الجسدية تسبق التربية العقلية، فيجب اذن في بادىء الامر تقوية الجسم وتحديد الحواس، ولا عزّ ان العقل الا ليخدم الحواس والجسم، فالطفل ينشأ والحالة هذه متوحشاً قوياً حدقاً لبقاً مراوغاً محتالاً، واما الذكاء فيأتي بعد ذلك اي عند ما تهيأ له كل الاعضاء الصالحة التي يتسنى لها تقديم ما هو في حاجة اليه من التأثيرات والمشاعر، وتتمكن من تأدية كل ما يطلبهُ منها من الفعال والاعمال

هذا هو الفيلسوف الكبير جان جاك روسو الذي قام في القرن الثامن عشر في وجه الهيئة الاجتماعية متهماً اياها بازاغة الانسان عن محجة الصواب وطالباً منها تركه ليعود الى احضان الطبيعة التي يجد فيها الطيبة والصلاح، فقد قامت فلسفته كلها على الرجوع الى الحالة الفطرية التي يعدها اكبر مهذب للاخلاق واعظم مثقف للمدارك

وقد كان لمذهبه هذا في ذلك العصر الذي عمَّ فيه الفساد وتدهورت فيه الاخلاق حتى بلغت الدرك الاسفل صدًى دَوِي في ارجاء المعمورة فرفع صاحبه الى السماك الاعزل

القاهرة — جورج نيقولاوس